صفحتا التاريخ

أبو ماهر اليماني(*)

غسان أُبعدَ عنّا، منذ عشرين عاماً، ولم يغبْ عن بالنا يوماً من أيّام هذه الأعوام، وسيبقى خالداً في نفوسنا خلودَ فلسطين في حياتنا.

ناجىٰ عقولنا؛ ومناجاةُ العقل تصقل الفكر، وتوقظ النيام وتهدي التائهين عن السبيل إلى سواء السبيل.

أسهم بالترويج للمبادئ القوميّة، والدعوة لتحقيق الوحدة العربيّة: لتحرير فلسطين والأرض العربيّة من مغتصبيها، وتحرير ثروات الوطن العربي من ناهبيها، وبناء المجتمع العربي الديموقراطي الشامل والموحّد.

أدرك بوعي وإيمان: أنَّ ما اغتُصب بالقوّة لن يُستردَّ إلّا بالقوّة، وأنَّ قوّة العرب كامنةٌ في وحدتهم. فبدأ حياته الكفاحيّة عضواً بارزاً في حركة القوميّين العرب، وأصبح قائداً مرموقاً في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والناطقَ الإعلامي باسمها ورئيس تحرير مجلّتها المركزيّة.

آمن بدور الكلمة الصادقة، المخلصة، المبدئيّة في تعبئة الجماهير سلاحاً يشحذ الهمّة ـ توعية وتنظيماً ـ ضد أعداء الشعب وطموحاته، ولا سيّما عندما تكون هذه الطموحات نابعة من وعي وطني وضمير قومي.

التزم الكتابة ميداناً للمبدأ القويم والموقف الحاسم، يؤدّي من خلالها دوراً في تعبئة الجماهير وتوعيتها. فكانت كتاباتُه في السياسة والأدب، وفي كلّ ما كتب: منفاخَ حدادة هائلاً، ينفث في كلّ شرارة من شراراته نضالاً جماهيريّاً وأملاً واعداً بالانتصار على أعدائنا القوميّين والطبقيّين مهما طال زمنُ الحصار والانحسار.

وممّا قاله غسّان في مقاله الافتتاحي الذي قدَّم فيه العدد الأوّل من مجلّة الهدف في ٢٦ تموز ١٩٦٩ تأكيداً لإيمانه بفعل الكلمة الصادقة المبدئيّة ما يلي؛

> **إنَّ مبرّر صدور الهدف هو رفضها لكلّ الصيغ العاجزة التي تتخذ حيناً طابعَ المساومة، وحيناً طابعَ المهادنة، وحيناً ثالثاً طابعَ الوسطيّة. وهي تعتنقُ الرفضَ الثوري أساساً للمعركة المصيريّة التي يجب أن تُدفع إلى مداها مع العدوّ الصهيوني المتحالف عضويّاً مع الاستعمار الجديد، وقوى الرجعيّة، وكلّ أشكال التخلُّف، بمظاهرها السياسيّة، الاقتصاديّة، الاجتماعيّة والأخلاقيّة.**

(*) مناضل وقائد فلسطيني بارز.

> **وهي إذْ تدرك اتّساع هذه الجبهة، [فقد] اختارت أن تخوض معركتها على عرضها، إنّما تدرك أنّ الغد الذي تستحقّه الأمّة العربيّة بجدارة لا يُمكن اجتراحُه إلّا من خلال معركة بهذا الحجم.**

وأكّد:

> **انَّ الهدف لا تستطيع إلّا أن تكون ملتزمة بقضايا الجماهير، قضايا اختيارها التقدّمي، وقضايا الكفاح المسلّح، وقضايا الوحدة العربيّة، وقضايا التحرُّر من قيود الاستعمار القديم والجديد، وقيود الأنظمة العربيّة الرجعيّة التقليديّة، والمتخلّفة، العاجزة عن تحقيق أهداف هذه الجماهير...**

وأضاف:

> **انَّ الالتزام الذي تربط الهدف نفسها به، منذ البدء، وبصورة عضوية، بالثورة وبقيمها، على صعيد عربي، وعلى صعيد عالمي، لا يمكن أن يُحقّق واجباته إلّا من خلال التزامه هو الآخر بالحقيقة.**

وأنهى مقاله الافتتاحي قائلاً:

> **وفي هذا النطاق، عاهدت الهدف نفسها، كما تعاهد قرّاءها، على أن لا تسمح لمواقف الارتجال، والانفعال، والمزايدة، أن تحلّ مكانَ المواقف الموضوعيّة العلميّة التي في ذاتها تعني الثورة.. وأن لا تسمح للمهادنة والوسطيّة أن تغيّبا الحكمة... في حين أنّهما لا تعنيان إلّا المساومة على قضايا الثورة.**

شارك غسّان من خلال موقعه القيادي في الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين برسم وتوثيق الخطّ السياسي الثوريّ لتعبئة الجماهير الفلسطينيّة، وهو خطٌّ يدعو إلى:

١ ـ تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني، وكلّ الأرض العربيّة، من مغتصبيها وعودة كلّ أهلها، لها كلّها.

٢ ـ تحرير الإنسان الفلسطيني والعربي من مستغلّيه القوميّين والطبقيّين.

٣ ـ إقامة الدولة الفلسطينيّة الديموقراطيّة المستقلّة في كلّ فلسطين، كجزء من مجتمع عربي ديموقراطي، شامل، وموحّد.

٤ ـ تحديد معسكر الأعداء بـ: الامبرياليّة ـ الصهيونيّة ـ الرجعيّة.

٥ ـ تحديد قوى المواجهة المتمثّلة بـ: الجماهير الفلسطينيّة والعربيّة وحركات التحرُّر الوطني الصديقة، وقوى الثورة العالميّة.

بدأ غسّان بتأريخ كفاح الشعب العربي في فلسطين، ضدَّ الانتداب البريطاني والغزوة اليهوديّة ـ الصهيونيّة. . وما كتبه عن الثورة الفلسطينيّة الكبرى عام ١٩٣٦، ليس سوى صفحةٍ من سجلّ هذا التاريخ الذي كان قد صممّ على متابعته، من خلال الاتصال المباشر مع المجاهدين وقادتهم الذين اشتركوا في الثورات والانتفاضات الفلسطينيّة المتعاقبة. كان يجالسهم، يسألهم، يستمع إليهم، يحاورهم، يسجّلُ ما يعرضونه عليه، لتكون كتابةُ تاريخ الكفاح الشعبي مدعمةً بالشهادات الحيّة من الذين مارسوا الكفاح وعايشوا مراحله.

هدوءُ غسّان كان ثورةً ذاتيّة، وثورتُه كانت إنتاجاً فكريّاً واعياً، وخطاباً سياسيّاً واضحاً، وأدباً قصصيّاً رائعاً، وفنّاً تعبيريّاً متميّزاً، وتأريخاً صادقاً لمسيرة كفاح شعبنا.

عاشت فلسطين في جوانح غسّان: نبضة من خلجات قلبه، شعاع نور في مقلتيه، حقيقة جليّة في نبرات صوته، خطّة كفاحيّة في أتون أفكاره.

آمن بدور الجماهير، واستعدادها الدائم للعطاء على طريق الانتصار، كإيمانه بحتميّة الانتصار. ودعا إلى مشاركتها مشاركةً فعّالة في كلّ شأن من شؤون الأمّة والوطن، وإطلاعها على ما يدور حولها، ويمسّ مصالحها وحقوقها، ويتعلّق بقضاياها، لتصبح الجماهير من خلال هذا التبيان أكثرَ وعياً، وأكثرَ استعداداً للتضحية والعطاء. والشعار الذي اختاره لتتويج مجلّة الهدف، ليصل من خلاله إلى الهدف كان: «الحقيقة، كلّ الحقيقة للجماهير».

ربط في كتاباته ربطاً محكماً بين المسألة السياسيّة والمسألة الاجتماعيّة، واعتبر إحداهما مكمّلة للأخرى. كما اعتبر أنّ هذا الترابط في عمليّة المقاومة الشعبيّة يشكّل درعاً واقيةً للمسيرة الثوريّة، من أجل الوصول إلى وطن متحرّر، متقدّم، وموحّد.

أكّد في خطابه السياسي على أنّ الصراع مع العدوّ الصهيوني صراعُ وجود مصيريّ، وعلى أنّ قضيّة تحرير فلسطين هي القضيّةُ العربيّة المركزيّة التي تتمحور حولها قضايا وأحداث الوطن العربي. وكان بالتالي يترجم خطَّ الرفض الثوري ترجمةً مبدئيّةً، لا يلتقي مع النهج الوسطي المهادن في الثورة، ويدعو إلى محاربة المساومة على الحقوق التاريخيّة الثابتة للشعب، ويحرّض على استمرار الثورة.

قدَّمَ الدراسات الغنيّةَ عن مجتمع العدوّ الصهيوني، ونبّه إلى خطورة طروحات ما يسمّى بقوى اليسار الصهيوني في ذلك المجتمع العدواني، محلّلاً بأسلوب علمي شؤونَ العدوّ السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

كما أنّه لاحق في مقالاته ودراساته بصورة متواصلة، تحرُّكاتِ الامبرياليّة العالميّة بزعامة الولايات المتحدة الأميركيّة، عدوّةِ الشعوب في العالم، ودعا إلى استمرار مواجهتها بكلّ وسيلة ممكنة.

هذا بالإضافة إلى تصدّي كتاباته لسياسات الأنظمة الرجعيّة العربيّة، وتعرية حقيقة عدائها لقضايا الجماهير الشعبيّة العربيّة المتطلّعة إلى التحرُّر والتقدُّم والوحدة. وكان حريصاً دائماً على كشف طبيعة العلاقة بين هذه الأنظمة والامبرياليّة الأميركيّة التي تصبّ في صالح العدوّ الصهيوني. كما فَضَحَ دور حكّام تلك الأنظمة في الاستراتيجيّة الامبرياليّة في وطننا العربي الكبير.

وكان الشهيد غسّان سبّاقاً في كشف مناورات العدوّ الامبريالي الصهيوني ـ الرجعي، والمؤامرات التي تُحاك لضرب حركة المقاومة الفلسطينيّة تمهيداً لتصفية قضيّة فلسطين وطلائعِ الثورة التحرُّريّة العربيّة.

كان غسّان صوتاً عالياً لجماهير شعبنا الرافضة الاستسلامَ والمصمِّمة على مقاومة المؤامرات.

لقد كان غسّان صوتاً عالياً لجماهير شعبنا اللبناني والفلسطيني، الرافضةِ للاستسلام، والمصمّمةِ على مقاومةِ المؤامرات، والصامدةِ أمام كلّ الآلام والمصاعب والمعاناة.

وفوق كلّ هذا، كان غسّان كنفاني المناضلَ السياسي، الوطنيَ والقومي، المؤرّخَ، الكاتبَ، الأديبَ، الصحفيَ، الفنّانَ، الإنسانَ. . والحديث عن غسّان يبدأ ولا ينتهي.

ما أحوجَنا إليك يا غسّان في هذا الزمن كي تُترجمَ بكلماتك الصادقة، وكتاباتك الواضحة، وخطابكِ السياسي المبدئي، الشعارَ الذي كلّلت به صفحاتِ مجلّة الهدف للوصول إلى الهدف: «الحقيقة، كلّ الحقيقة للجماهير»؛ وكي تتناول في هذه الترجمة المبدئيّة والواضحة زاويتيْن محطّتيْن. الزاوية المشرقة والممثّلة بـ:

أولاً: الانتفاضة الشعبيّة المجيدة في فلسطين كصفحة مجدٍ من تاريخ كفاح شعبنا المستمرّة منذ كانون الأوّل عام ١٩٨٧، هذه الصفحة التي يسجّلها الأطفالُ والفتيانُ، والشبابُ، والشيوخُ، الرجالُ والنساءُ، العمّالُ والفلاّحون، الطلاّبُ والمعلّمون، التجّارُ والمهنيّون، . . وهي انتفاضة قد تطوّرت من الحجر إلى الزجاجة الحارقة إلى السكّين فالقذيفة والرصاصة.

ثانياً: المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة والعمليّات الاستشهاديّة في جنوب لبنان، المتواصلة والمتصاعدة، والمصمّمة على الاستمرار حتى كَنْسِ الاحتلال الصهيوني وعملائه وأدواته من لبنان، حفاظاً على عروبته ووحدة أراضيه.

ولسان حال شعبنا في فلسطين ولبنان يردّد مع توفيق زياد، ابن الناصرة المحتلّة منذ عام ١٩٤٨ في مخاطبة العدوّ الصهيوني:

ربّما تسلب اخر شبر من ترابي
ربّما تسرق ميراثَ جدّي من أوانٍ وأثاثٍ وخوابي
ربّما تُنهكُ في السِّجن شبابي
ربّما تُطعم لحمي للكلابِ
لكنّني يا عدوَّ الشمسِ، أبداً لن أُساومْ..
وإلى آخرِ نبضٍ في عروقي سأقاومْ
لنْ أُساومْ.. سأُقاومْ

والتطلُّع إلى مجالسته في روما خلال أيّام كمكسب آخر.

وبالرغم من كلّ ما فعله حزب رابين منذ قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ وتشريد شعبنا، واحتلال كلّ فلسطين عام ١٩٦٧؛

وبالرغم ممّا قاله رابين بعد إعلان فوز حزبه في ١٩٩٢/٦/٢٣: بأنّه سيُطْبِقُ القبضة الحديديّة ضدّ المواطنين الفلسطينيّين... وأنّه سيحتفظ بالمستوطنات الواقعة في منطقة القدس، ووادي الأردن، والجولان،.. وأنّ القدس ستبقى عاصمتهم إلى الأبد، فهي قلب وروح الشعب ودولته،... وأنّه سيعارض تدميرَ المستوطنات

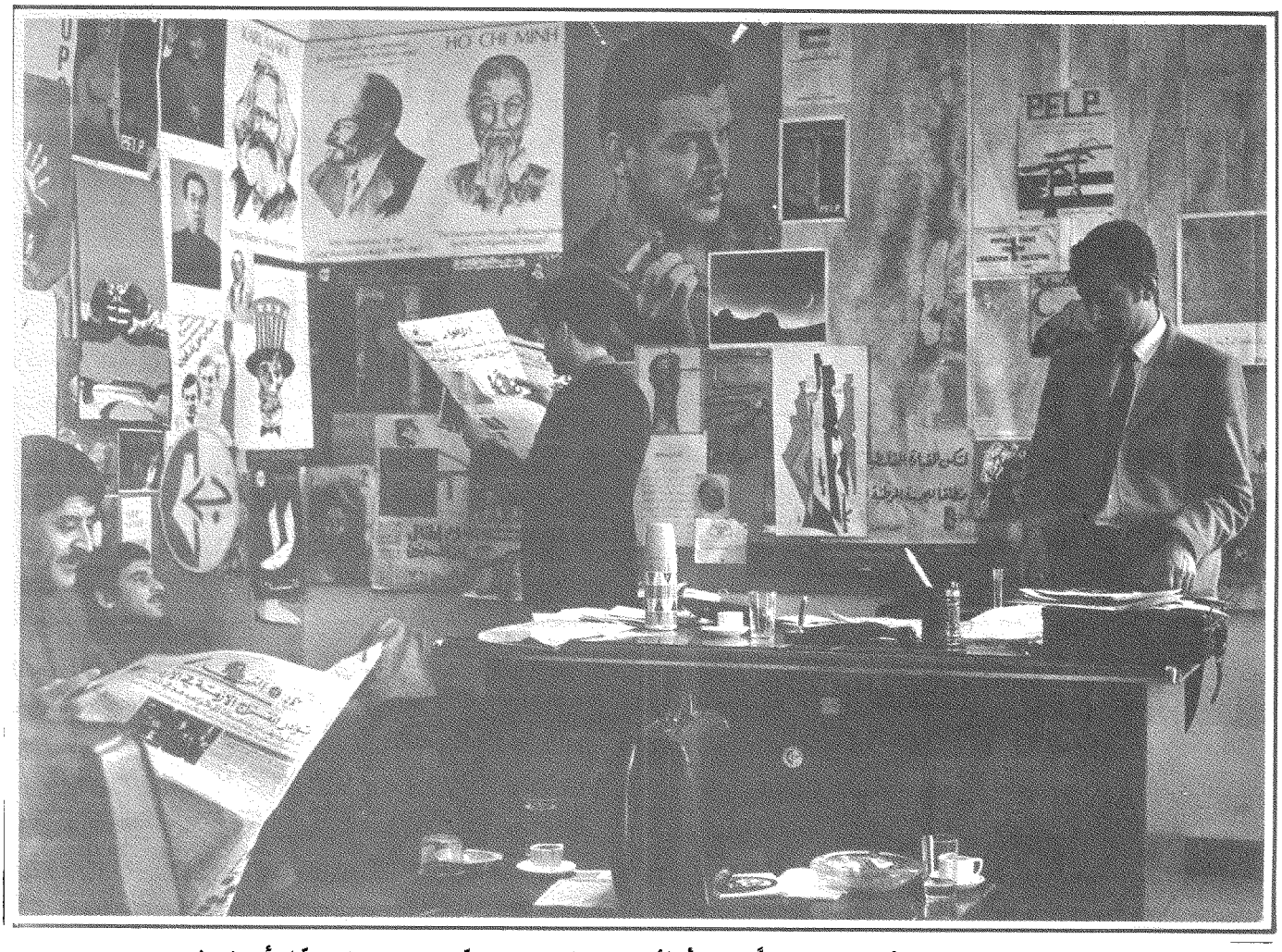

مكتب مجلة الهدف «الأسطوري»: غسّان يقرأ الأنوار، وراءه تيسير قبعّة، وعلى يساره بسّام أبو شريف

أمّا الزاوية المظلمة فممثّلة بـ: تقاطر مندوبي الدول العربيّة - وبينهم بعض أبناء شعبنا داخل فلسطين، بتوجيه من القيادة المتنفّذة في منظّمة التحرير الفلسطينيّة، ومن رئيسها بالذات - إلى موائد المفاوضات، وتقديم التنازلات، والتهالك لكسب رضا الإدارة الأميركيّة عدوّة الشعوب، والاستناد إلى ضماناتها، واعتبار مجرّد الجلوس قبالةَ «شامير» في مدريد وواشنطن مكسباً يعني الاعتراف بوجودنا، ثمّ التصفيق الحادّ لنجاح «رابين» وحزبه في الانتخابات،

القائمة في الضفّة والقطاع، وأنّ ما حدث عند إعادة سيناء لن يتكرّر (مع أنّه لكي يكسب ضمان الإدارة الأميركيّة للمليارات العشرة، قال إنّه سيجمّد إقامة المستوطنات في الضفّة والقطاع لمدّة سنة واحدة!)؛

وبالرغم من تحذيرات القيادة الوطنيّة الموحّدة للانتفاضة الشعبيّة المجيدة في بيانها رقم ٨٤ الذي جاء فيه: «لقد أثبتت المؤسّسةُ

الحاكمةُ، والأحزابُ الصهيونيّة على مدار سني الاحتلال، تُمسِّكها بكلِّ شبر من أرض وطننا المحتلّ، وهذا ما أكّدته الوقائع المادّيّة المفروضة على الأرض»؛ وبالرغم من أنّ البيان نبّه إلى: «مخاطر الترويج والرهان على دور حزب وحكومة الفاشي رابين في المرحلة المقبلة؛ فرابين وحزبه أكّدا مراراً على استمرار الاحتلال، والاستيطان، والرفض القاطع للانسحاب من المناطق المحتلّة»؛ مضيفاً (أي البيان) «أنّ جماهير شعبنا تدرك ـ وهي صاحبة تجربة عميقة ـ بأنّ حزب العمل يعمل على تصفية قضيّتنا الوطنيّة وحقوق شعبنا العادلة والمشروعة والممثّلة بحقّه في العودة، وتقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينيّة المستقلّة»...

رغم كلّ ذلك صرّح رئيس اللجنة التنفيذيّة لمنظّمة التحرير بأنّ الانتخابات كانت «تصويتاً للسلام»... وكأنّه يعتبر رابين داعيةً للسلام!

لقد أشاد بعضُ أعضاء الوفد بما أحرزوه من نجاحات، وما سبّبوه لوفد العدوّ من إحراجات، وطالبوا بإجراء الانتخابات لمرحلة الحكم الإداري الذاتي الموعود؛ **وهو حكمٌ يتصوّرونه** مرحلةً انتقاليّة لإقامة الدولة الفلسطينيّة في الضفّة والقطاع؛ علماً أنّ العدوّ قد صادر ما نسبته حوالي ٥٢٪ من أرض الضفّة وحوالي ٤٠٪ من أرض القطاع، وأقام عليها مئات المستوطنات، للغزاة اليهود ـ الصهاينة الذين يُجلبون من شتّى بلاد العالم.

لقد قال ميشال قسيس، أحدُ أعضاء الجانب الفلسطيني إلى مؤتمر مدريد **لصحيفة الهيرالد تريبيون بعد انتهاء جلسات مدريد وقبل الانتقال إلى واشنطن: «بعد جلستين من الحوار مع الوفد العبري** في مدريد، أستطيع أن أقول بأن الحكم الإداري الذاتي المنتظر لا يتعدّى السماح لنا بممارسة حرّيّتنا بكنس الشوارع وتوزيع البريد.»

وكل من تابع أخبار ما دار في مدريد، أو واشنطن، أو موسكو، وما قيل فيها وما نُقل عنها، لا بدَّ أنّه أدرك أنّ وفد العدوّ الصهيوني لم يُقدّم أيّ تراجع جوهري عن مواقفه المعلنة، وأنّ الضامنَ الأميركي قد تنكّر لضماناته التي لَوّح بها للدول العربيّة ملتزماً بضماناته للكيان الصهيوني وحده.

ما أحوجنا إليك هذه الأيّام يا غسّان. فقد كنت صوتنا الناطقَ باسمنا، المعبّرَ عن آمالنا وأمانينا، المحرّض على انعتاقنا من واقع مظلمٍ نعيشه إلى مستقبلٍ مشرّف نتطلّعُ إليه، لتحرير الأرض والإنسان وتوفير الحرّيّة والديموقراطيّة لكلِّ مواطن عربي في كلِّ قطر من أقطار وطننا العربي الكبير.

واجبُنا ونحنُ نلتقي هذه الأيّام لنحيي ذكرى مرور عشرين عاماً على استشهاد غسّان المناضل، الأديب، المؤرّخ، المبدع، أن نحيّي بتقدير واحترام ذكرى شهداء الثورة الفلسطينيّة والانتفاضة الشعبيّة

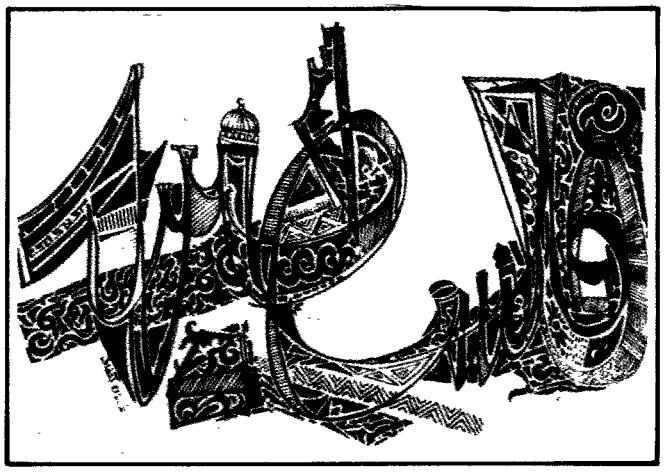

بريشة غسّان

المجيدة في فلسطين وشهداءِ المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة في لبنان، وشهداء الأمّة العربيّة في كلِّ زمان ومكان.. وكلُّهم قاوموا ولم يساوموا.

والتاريخ صفحتان:

صفحة مجد وفخار يسجِّلها المقاومون

وصفحة خزي وعار يسجِّلها المساومون المفرِّطون.

والاحتفال بتخليد ذكرى شهداء الحريّة في كلِّ زمان ومكان يستوجب التصميمَ على مواصلة الكفاح، واستمرار النضال بمختلف أشكاله ووسائله السياسيّة والعسكريّة والجماهيريّة والإعلاميّة والتنظيميّة، لنحقّقَ ما استشهدوا في سبيله: فلا نفرّط بحقّ، ولا نتنازلُ عن ذرّة تراب.. نقاومُ ولا نساوم.. ونحن ندرك أنّ الطريق شاقٌّ وطويل، وأنّ معسكر الأعداء قادرٌ مرحليّاً على ممارسة القهر والاعتقال والاغتيال والتشريد ونسف المنازل وإحراق المزارع والحصار وقصف القرى والمخيّمات، ولكنّه لن يستطيع أن يدمِّر إرادة الكفاح والنضال فينا.

واجبُنا أن نثبتَ بالممارسة هذه الحقيقة، لكي تتحوَّل الكلمة الواضحة، الصادقة والصريحة، إلى قوّة ماديّة حقيقيّة، ومن أجل أن يصبح البنيان النظريّ والسياسي والتنظيمي على الصعيدين الوطني والقومي بمستوى التصدّي لمؤامرات معسكر الأعداء القوميّين والطبقيّين، ومن أجل التمكّن من تحقيق الانتصار.

الواجب يقتضي منّا، ونحن نشارك بهذا المهرجان الخاصّ بإحياء الذكرى العشرين لاستشهاد شهيدنا الكبير، أن نوجّه تحيّةَ تقدير واحترام للسيِّدة آني كنفاني التي قالت لقيادة الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين في معرض البحث معها عن المستقبل الذي تراه لنفسها ولولديها، وهل ستعود إلى الدانمارك بعد استشهاد غسّان لتبقى مع أهلها: «عندما تزوَّجت غسّان، كنت أعرف طبيعةَ عمله كصاحب رسالة. وكان حبّي له يزداد مع ازدياد جهوده وتضحياته في سبيل شعبه الذي أصبح شعبي، وقضيّة وطنه الذي بات وطني. فالوفاء

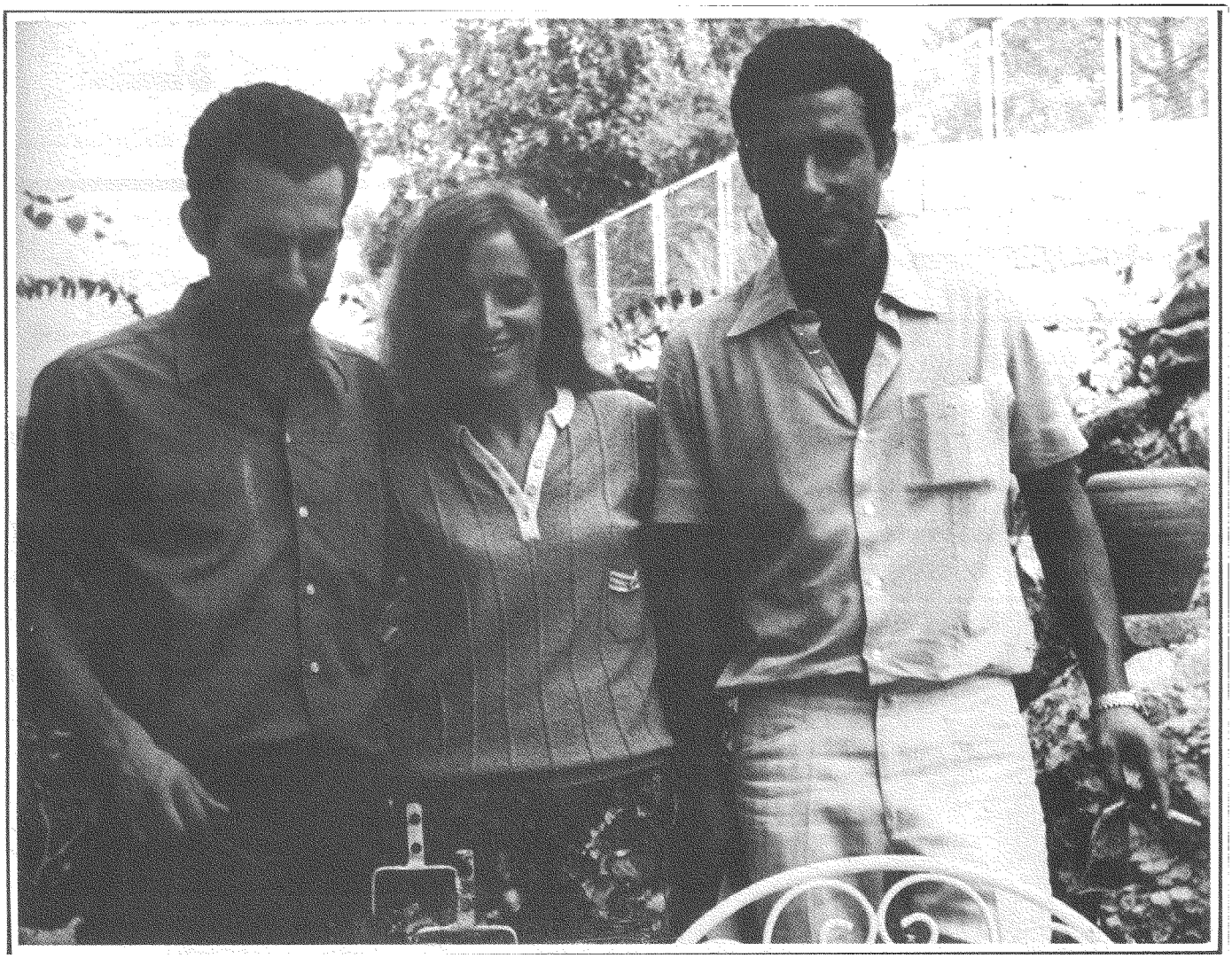

غسّان، آني، مروان شقيق غسّان، صيف ١٩٧١

منيٍّ لذاكره، أن أبقى بين أطفال المخيّمات، أمل المستقبل، عساي أتمكّن من تقديم خدمةٍ لهم. والوفاءُ لذكرى غسّان يفرض عليّ أن أفسح المجال لابنينا، فايز وليلى، لكي يتعلّما ويتقنا اللّغة العربيّة التي كتب بها غسّان من أجل أن يقرآ تراثه بلغته.. لا أن يقرآ ما يُترجم من تراثه بلغةٍ غير لغته». وختمتْ قولها: «أرجوكم أن لا تحرموني شرف السير معكم على درب غسّان.»

وكان للسيِّدة آني ما أرادت. ولم يمض وقت طويل، حتّى رأيناها تقوم مع بعض الأصدقاء، وفي مقدّمتهم الأستاذ فاروق غندور، بتأسيس مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة التي تستهدف:

١ ـ جمع ونشر آثار الشهيد الأدبيّة والفنيّة.

٢ ـ تأسيس رياض للأطفال الفلسطينيّين واللبنانيّين المحتاجين.

٣ ـ تقديم منح دراسيّة ومساعدات للطلّاب المتفوّقين والمحتاجين ليتابعوا دراساتهم العليا.

٤ ـ توزيع جوائز ثقافيّة.

وها نحن اليوم نجد أنفسنا أمام ستِّ رياض للأطفال في مخيّمات نهر البارد والبدّاوي في شمال لبنان، وبرج البراجنة ومار الياس في ضواحي بيروت، وعين الحلوة والرشيديّة في جنوب لبنان. وتضمّ هذه الرياض حوالي تسعمئة طفل تُقدِّم لهم المؤسّسة كلَّ رعاية وعناية. وبالإضافة إلى هذه الرياض هناك روضةٌ لتأهيل المعاقين عقليّاً، وأخرى للمعاقين جسديّاً ومركز تدريب المشرفات ومربيّات الأطفال من جميع المناطق لبنانيّين وفلسطينيّين.

وها هما فايز وليلى بيننا، وقد أتقنا اللغة العربيّة، ودرسا آثار والدهما الخالدة، وما كتب في السياسة والأدب، يتأهبّان لتصوير فيلم وثائقي عن حياة الشهيد وكفاحه المرتبط في مختلف مراحل حياته بتاريخ كفاح الشعب الفلسطيني وتمسُّكه بحقوقه التاريخيّة الثابتة، واستمرار مقاومته، ورفضه لكلِّ مساومة.

فاقبلي منّا ونيابة عن جماهيرنا وعن أطفالنا، يا رفيقتنا آني، أنت والصديق العزيز فاروق غندور، فائقَ التقدير والاحترام والامتنان، ومن خلالكما نقدِّم الشكر والتحيّة لكلِّ من أسهم ويسهم في مؤسّسة غسّان كنفاني الثقافيّة...